أبو الحسن الندوي

الإمام الممتحن
أحمد بن حنبل

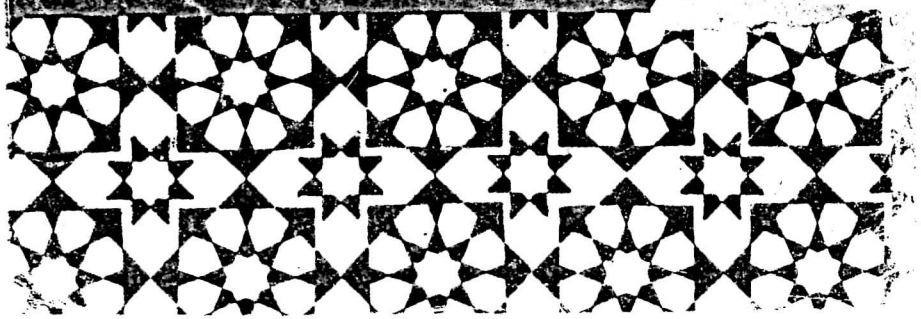

المختار الإسلامي

مطابع الأهرام التجارية

جـ
٦

ليس سر عبقرية أحمد بن حنبل في دفاعه عن عقيدة من عقائد الإسلام ، وانتصاره لها — وفضله في ذلك لا ينكر — ولكن مأثرته الكبرى التي أكسبته منصب التجديد ، هو أنه وقف سدا منيعا في اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفي المتهور ، الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج من منابع الدين الأولى ، وعن النبوة المحمدية ، وخضعت هذه الأمة للفلسفات ، وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ، وانتصرت الحكومة على الشعب ، والسياسة على الدين انتصارا مؤبدا ، وسلبت حرية الرأي والعقيدة ، ولاشك أنها رزية جليلة ، وفتنة عظيمة في الإسلام ، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهي في شبابها وأوجها ، وحفظ هذا الدين من أن يعبث به العابثون ، وتتحكم فيه السلطة والأهواء ، وحفظ هذه الأمة من أن تكون في حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم ، يفرضون عليها العقائد فرض الجبايات ، ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنم والبقرات ، ورد إلى العقيدة الإسلامية كرامتها وأصالتها ، وإلى الأمة حريتها وشخصيتها ، فاستحق بذلك تقدير الإنسانية وثناء المسلمين ، واعتراف الأجيال القادمة وإجلال التاريخ وإكباره ، وكان من المجددين الكبار في الإسلام

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة — ص . ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الحسن الندوى

الإمام الممتحن
أحمد بن حنبل

المختار الإسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ـ ص . ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

نشأة الاعتزال والمعتزلة :

يحلو لى أن أفتتح هذه المحاضرة بكلمة سبقت لى فى كتابى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . قد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الانسان بعد موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفوا بدون تعب. وكفوهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ، ليتوصلوا الى مجهول. لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيهـا حواسهم ، ولا يؤدى اليها نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعا . وبدأوا البحث أنفا . وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة لايجدون فيها مرشدا ولا خريتا . وكانوا فى ذلك أكثر ضلالا وأشد تعبا وأعظم اشتغالا بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الانسانى فى الجغرافية ، وما حدد وضبط من الخرائط على

www.abulhasanalinadwi.org

تعاقب الأجيال أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره وضعف قوته وفقدان آلته فلم يلبث أن انقطعت به مطيته ، وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات واشـــارات مختلفة ، وكذلك الذين خاضوا فى الالهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ، ونظريات مستعجلة ، فضلوا وأضلوا .

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادىء ثابتة ومحكمات هى أساس المدنية الفاضلة والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الاعصار ، فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار ، فزاغ أساس المدنية وتداعى بناؤها وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين جدا ، اذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكفوا المئونة ، وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم فى غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا فى الدين بلب اللباب .

هذا هو تصوير الواقع فى آخر القرن الثـــانى ، وان لم أقصد تصويره ، وانما قصدت تصوير العصور الجاهليـــة وعصور الفترة ، ولكن الطبيعة البشرية جامحة لا تقف على الحدود ، نهمة بالمتاعب والجهاد فى غير جهاد ، فلم ينقض القرن الأول ، ولم ينقرض الجيل الاسلامى الأول — الذى

تلقى الدين من النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان كما وصف عبد الله بن مسعود « أبر الناس قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا » — حتى أولع الناس بالخوض فى مسائل الذات والصفات ، وأثاروا مسائل ليست عندهم وسائل الوصول اليها ، ومؤهلات الحكم عليها ، وكان ذلك بتأثير الفلســـفة اليونانية التى لم تكن الا مجموع خواطر لا تقوم على أساس علمى ، وطلسما من كلمات ومصطلحات يروع الانسان ، فاذا افتقده لم يجده شيئا . وقد كان المسلمون فى غنى عن ذلك بما جاء به الرسول من علم محكم ، وبينة واضحة كما قدمنا ، وقد انصرفت هممهم الى الجهاد والفتح الاسلامى ، ونشر الدعوة والمسائل الجدية ، وتدوين العلوم المفيدة ، ملك عليهـــم ذلك عقولهم وأفـــكارهم ، واستنزف جهودهم وأوقاتهم ، فلما انتقلت العـــلوم اليونانية والسريانية الى العربية ، وانصرف الناس عن ميدان القتال ، وتنفسوا عن الجهاد ، أثيرت هذه المباحث ، وأقبل الناس عليها ، وكان أسرع الناس اليها هى الطبقة التى كانت أشد انفعالا وتأثرا، وأسرع قضاء وتحكما ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد ، ولكنه ذكاء ليس فيه عمق ونبوغ ، وكان ذكاء طافيـــا لم يعرف الرسوب والنزول الى الاعماق والاستقرار فى القعر .

كان يتقدم هذه الطبقة طائفة تعرف فى تاريخ الاســـلام « بالمعتزلة » الذين كانوا مع ثقافتهم الواسعة وذكائهم النادر لم يتعمقوا فى العلم ولم يدققوا ، وكانت ثقافتهم أوسع مما هى أعمق ، وقد أخطأ كثير منهم فهم حقيقة الدين ، وأسرفوا فى تقدير سلطان العقل وحدود العلم الانسانى ، فجاءت نظرياتهم فى الدين ومباحثهم فى ما وراء الطبيعة نظريات فجة لم تنضج بعد ، ومباحث مستعجلة قد فاتها الاحكام والتدقيق، شأن كل شعب وكل طائفة فى بداية الدور العقلى ، وفى الطفولة

www.abulhasanalinadwi.org

العقلية ، ولو قدر لهم أن يعيشوا أو يتقدموا فى العلم لنقضوا كثيرا مما أبرموا ، وأبرموا أكثر ما نقضوا .

وقد لاحظ الدكتور أحمد أمين — الذى انتصر للمعتزلة فى كتبه ، وكان شديد الاعجاب بهم عظيم الاعتراف بانتاجهم وخدمتهم للدين — ان نقطة الضعف فيهم انهم أسرفوا فى تمجيد العقل والايمان بقوته واقتداره . يقول — وهو يذكر الخلاف بين المحدثين والمعتزلة — : « فجوهر الخلاف اذن بين هؤلاء المعتزلة هو سلطة العقل ومداها وحدودها ، رأى المعتزلة أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله ، فلا حدود للعقل الا براهينه ، ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان ، فاستعملوا البراهين فى أدق الأمور وأصعبها وأعقدها ، ففى استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها ، وهكذا كانت نزعة المعتزلة هذه متجلية فى كل أبحاثهم ، يسيرون وراء البرهان الى نهايته ، ويثيرون أصعب المشاكل وأعقدها ، ويتعرضون لحلها ، فاذا تم لهم حلها أو — على الأقل — اعتقدوا بحلها ، تأولوا آيات القرآن على مقتضاها ، وعلى العكس من ذلك الآخرون ، رأوا أن العقل أضعف من ذلك ، وأن استطاعته محدودة بادراك ما يتعلق بشأنه هو ، أو أقل من ذلك ، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله ، والنبوة العامة ، ونبوة محمد خاصة ، ولم يمنح القدرة على كنه الله وصفاته ، فلنؤمن بما جاء به أنبياؤه ، ولنقف عندما قالوه ، ولا نثر مشاكل لم يأت بها الأنبياء ، ولنسد الطريق على من يثيرونها ، فان جادلناهم فى شىء ففى بيان خطئهم وفساد طريقتهم (١) » .

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٩ .

ويقول فى موضع آخر ، منتقدا نزعة المعتزلة الى قياس الغائب على الشاهد ، وهو أساس منطقهم الذى جروا عليه فى فلسفتهم الدينية :

« ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، أعنى فى قياس الله على الانسان ، واخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله — مثلا — بالعدل كما يتصوره الانسان ، وكما هو هو نظام دنيوى ، وفاتهم أن معنى العدل — حتى فى الدنيا — معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ، وأن ما كان عدلا فى القرون الوسطى يعد ظلما الآن ، فكيف اذا انتقلنا من عالم الدنيا الى عالم الله ؟ ! وكذلك الشأن فى قولهم فى الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، انا نرى أن الانسان اذا ضاق نظره حكم على الأشياء حكما ، فاذا اتسع نظره تغير حكمه ، فمن نظر فقط الى أسرته كانت بعض أحكامه خطأ بالنسبة لمن اتسعت نظرته الى أمة أو الى الانسانية عامة .

ونحن فى أعمالنا ننظر الى عالمنا ، والله تعالى رب العالمين قد ينظر فى أعماله الى جميع العوالم ، ما نعلم منها ومالا نعلم، فكيف نخضع الله تعالى لتصور العدل الذى نتصوره نحن فى عالمنا هذا ؟! — وكذلك قولهم فى أن صفات الله هى عين الله أو غير الله ، كل براهينهم مبنية على قياس الغائب على الشاهد ، ولكن الشبه معدوم ، وقد فرضوا أن العينية والغيرية والزمانية والمكانية والسببية ونحوها قوانين لازمة لكل موجود ، وهذا — فى نظرى — خطأ محض ، فهى قوانين انسانية ، وان تسامحنا قليلا قلنا انها قوانين عالمنا هذا ، ولسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق، فاصدار حكمنا على الله — على اعتقاد أنها قوانين شاملة

www.abulhasanalinadwi.org

للانسان والله — جراة لا يرتضيها العقل الذى يعرف قدره ، ولا يعدو طوره ، وليس هذا عيب المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعد من علماء الكلام كذلك » .

لقد كان هذا الاتجاه العقلى الذى تزعمه المعتزلة ، والذى كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، واخضاع النظام الدينى بما فيه من عقائد وحقائق — بل اخضاع الذات والصفات والأفعال الالهية له ، وعلى قياس الغائب على الشاهد اتجاها خطرا على الاسلام ، وفتح باب فســـاد عظيم فى المجتمع الاسلامى . لقد كان هذا تحويلا للدين البسيط العملى الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، يستسيغه العقل البشرى بكل سهولة الى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها واساغتها كثير من العقلاء والأذكياء ، ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ، واضعافا للايمان ، واثارة للشكوك والشبهات ، وغدم الثقة بما يقوله النبى ، ويعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل على وجوده ، وما أكثر فى العالم ما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل عليه .

واسمحوا لى أن أنقل كلمة أخرى للدكتور أحمد أمين فى انتقاده على المعتزلة فى هذه الناحية :

« ربما أخذ عليهم أنهم فى — سيرهم هذا وراء السلطان العقلى — قد نقلوا الدين الى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ، وهذا النهج ، اذا صح أن تقتصر عليه فى الفلسفة ، فلا يصح أن يقتصر عليه فى الدين ، لأن الدين يتطلب شعورا حيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية ، فالدين ليس كالمسائل الرياضية ، ولا كالنظريات الهندسية تتطلب من العقل حلها ، وفى ذلك كل الغناء ، بل الدين أكثر من ذلك ،

يتطلب شعورا يدعو الى العمل ، وحرارة ايمان تبعث على التقوى . ونظام المعتزلة — وهو الذى جرى عليه المتكلمون بدورهم — نظام جيد التفكير ضعيف الروح ، غالى فى تقدير العقل ، وقصر فى قيمة العاطفة ، يتجلى ذلك لك اذا أنت وازنته مثلا بمنهج الصوفية فهو على العكس من المعتزلة : شعور وعاطفة ولا منطق ، والنظام العقلى فى الدين يقف الانسان — فى العادة — موقفا سلبيا أكثر منه ايجابيا (١) » .

المأمون وعقيدة خلق القرآن :

بقى المعتزلة طائفة من طوائف المسلمين ، لا تملك نفوذا سياسيا ، ولا سلطة حتى ولى المأمون بن الرشيد الذى يصفه الدكتور أحمد أمين فيقول : « كان عقله عقلا فلسفيا ، حرا فى تفكيره ، مع التقيد بأصول الدين .. كان الاعتزال أقرب المذاهب الى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتمادا على العقل ، فقرب المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر ، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبى دؤاد »(٢) .

« لم يكن المأمون امعة يوجه فيتوجه ، ولكنه — مع قوة شخصيته — يتأثر برأى من حوله ، وكان على اســـتعداد لذلك ، فمن قبل ، أدخل المسائل الدينية فى شئون الدولة ، فأعلن تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وأغضب بذلك كثيرا من الناس ، ونادى — من قبل — بتحليل المتعة وهو فى طريقه الى الشام ، لمـــا صح عنده من حديث حل المتعة ، فما زال يحيى بن أكثم يروى له الاحاديث فى حرمتها

---

(١) ضحى الاسلام .
(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٦٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

عن الزهرى وغيره ، ويقيم له البراهين على حرمتها ، حتى اقتنع فأمر بأن ينادى بتحريمها بعد أن كان قد أمر بها (١) » .

وهذا وصف صادق للمأمون ، وتصوير نفسيته وطبيعته ، حدة فى الذكاء ، والتقاط للاراء ، وتهور فى الرأى ، وسرعة فى التنفيذ ، وهى صفة ملك قوى الشخصية ، شديد الانفعال ، لم تمهله أحواله والظروف المحيطة به للدراسة العميقة . والعلم الراسخ ، وقد أحاط به علماء وأذكياء يحرصون على النفوذ فى عقله ، وتنفيذ مذاهبهم وآرائهم فى الشعب ، وقهر أعدائهم عن طريق السلطان .

وهكذا أصبح المعتزلة أصحاب حول وطول فى الدولة العباسية ، وأصبح الاعتزال مذهبا رسميا يتبناه قاضى القضاة، أحمد بن أبى دؤاد ، ويحميه الخليفةالعباسى ، ويدين به أصحاب المناصب والجاه والنفوذ فى المملكة .

ولم يشأ تدين المعتزلة أو طبيعتهم الخاصة أن تعيش فى المملكة فكرتان متنافستان ، وأن ينازع الاعتزال مذهب أهل الظاهر والقشور (يعنى المحدثين) ، لقد صدق الأستاذ أحمد أمين اذ قال : « كان لهم طابع خاص غريب يجمع بين التعصب الحاد وحرية الفكر المفرطة (٢) » . وقد رأينا مرارا فى التاريخ ، أن المؤمنين بحرية الفكر المفرطة يطغى عليهم التعصب الحاد ، وكأنهم يريدون أن يحتكروا حرية الرأى ويمنعوها غيرهم ، وشأنهم فى ذلك شأن المطففين « اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » وهذا الذى نشاهد فى هذا العصر عند الأحزاب السياسية .

(١) ضحى الاسلام ج ٣ .
(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٦٥ .

انتهز المعتزلة هذه الفرصة السانحة ، وصمموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الاسلام ، والمذهب السائد فى المملكة لا يزاحمه مذهب آخر ، وكانت « مسأله خلق القرآن » هى المسألة الحاسمة التى يصح أن تصبح مقياسا للخضوع والاعتزال والتدين بمذهبه ، فركز المعتزلة اعلامهم على هذه المسألة وجعلوها فارقا بين الايمان والكفر ، وشعارا للتوحيد ، وشرطا لصحة العقيدة .

وقد ألح المعتزلة على تسمية القرآن بالمخلوق ، لأنهم يرون أن الله هو وحده القديم ، وكل ما عداه فهو محدث ومخلوق . وأنكر المحدثون هذا التعبير المحدث ، وألحوا على أن يسموه القديم ، واستشنعوا أن يسموه المخلوق ، وقالوا : « القرآن كلام الله ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، واثارة هذه المسألة بدعة ، لم يقلها النبى صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ، فلا نتابعكم فى السير فيها ، ولا نتابعكم فى الجدال أو الخصومة ، ونقف عند قولنا : القرآن كلام الله ، وهذا فقط هو ما قال الله فى قرآنه الكريم . انهم كانوا يعتقدون أن الكلام فى هذا لا يصح ، ولا يصح أن يصل الى العامة ، فاذا قلنا لهم « القرآن مخلوق » لم يبق فى نفوسهم الا شىء واحد ، وهو عدم التقديس والاجلال ، وهذا يدعو الى ضعف العقيدة ، والاستهانة بالقرآن ، وقد يجلب بعض القائلين الى أن يعتقدوا — كما ظهر فى بعض الأوساط — أن المعانى من الله ، وانما عبر الرسول عنها بلفظه وعبارته (١) » .

أما المعتزلة فرأوا — بحكم العقلية التى نشأوا عليها — أن

(١) اذا شئت الاطلاع على مذاهب المعتزلة والمتكلمين وأهل السنة فى هذه المسألة ودلائلهم ، فاقرأ « جلاء العينين فى محاكمة الاحمدين » للشيخ نعمان الالوسى البغدادى .

www.abulhasanalinadwi.org

المطالبة بهذه العقيدة فرض محتم ، لا يصح العدول عنه ، ولا يسع الحكومة التى تدين بالاسلام ، وتحمى عقيدة التوحيد ، أن تداهن أو تتساهل فى تنفيذ هذه العقيدة وأخذ الناس بها ، يمثل هذه الفكرة وهذه النفسية خير تمثيل ما جاء فى كتاب المأمون :

« قد عظم هؤلاء الجهلة « القائلون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق » بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ، والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام .. ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه به ..... وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين » .

وهكذا رأى المعتزلة أن الاسلام يتركز فى الاعتقاد بخلق القرآن ، وحملوا رأس الحكومة الاسلامية — المأمون بن الرشيد العباسى — على حمل المسلمين على هذه العقيدة ، فحمل الناس عليها سنة ٢١٨ هـ ، وبدأ ذلك بارسال كتاب الى والى بغداد ، اسحاق بن ابراهيم ذكر فيها : ان خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين واقامته والعمل بالحق فى الرعية ، وذكر أن القائلين بقدم القرآن والمنكرين لخلقه « شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد .... وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فانه لا عمل الا بعد يقين ، ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة الاسلام واخلاص التوحيد ، وأمره بجمع الناس وامتحانهم فى هذه العقيدة ، وعزل كل من لا يوافق عليها ولا يدين بها .

وهكذا بدأت هذه الفتنة التى تسمى فى التاريخ « بالمحنة » وكان ذلك قبل وفاة المأمون بأربعة أشهر .

احتضنت الدولة العباسية الكبرى فى عهد ملك من أقوى ملوكها ، وأعظمهم شأنا وسلطانا ، عقيدة لا يفهمها العامة ، ولا يوافق عليها الشعب ، وفرضتها على الجمهور ، وجعلتها فارقا بين الكفر والايمان ، والشرك والتوحيد ، وأمرت باقصاء كل من لا يدين بها أو يخالفها ، وامتحانه وتعذيبه ، فكانت محنة عظيمة على الأمة ، وفكرة فلسفية ضاق عنها تفكير العامة ، وضاقت بها نفوسهم ، لأنها تطلب مستوى علميا راقيا ، والماما بالفلسفة وذكاء ، والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب ، يعجبنى فى ذلك ما قال الأستاذ أحمد أمين ، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهتهم — على ذكائهم — فى هذا الشأن :

« كان عقل المعتزلة عقلا حادا جافا فلسفيا ، وأضعف نقطة فيه أنه يراد أن يفرض على العامة فرضا ، يراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والمحدود واللامحدود ، والوحدة والتعدد ، والمكان والجهة ، والى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط ، لا أدرى ان كان ذلك فى مصلحة الانسانية أو لا »(١) .

ولكن قد كان ذلك ، فقد صدرت من الخليفة كتب وامتحن ناس ، وعزل ناس ، وكانت هذه المسألة الفلسفية شغل الدولة والخليفة ، وشغل الناس الشاغل ، ووقع الناس فى بلاء عظيم ، وفى حيرة عظيمة ، ولم يدروا كيف يفعلون ! مسئلة لا يفقهونها ولا يسيغونها ولا يوافق عليها من يعتقدون فيه الصلاح والنزاهة والتقوى وفهم الكتاب والسنة ، تفرض

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

عليهم فرض الجباية ، يمتحن فيها علماؤهم ، ويعزل فيها قضاتهم ، ويسقط فيها شهودهم .

لقد كانت السنة بل الأمة بحاجة ملحة الى الارشاد والتوجيه ، وان شئتم قلتم الى الزعامة الدينية ، وكان المسلمون فى حاجة شديدة الى امام يثقون بدينه وأمانته وفقهه ، يعارض هذا التيار ويقف فى وجه الحكومة مدافعا عن السنة ، جاهرا بالحق ، محتملا للأذى ، صابرا على البلاء ، ولا بد أن تكون شخصية قوية معروفة تتمتع بالاجلال والتقدير .

لقد ظهرت هذه الشخصية التى يصبح صاحبها « زعيم المعارضة » وحامل لواء السنة ، وهى شخصية أحمد ابن حنبل .

أحمد بن حنبل : هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، الامام أبو عبد الله ، الشيبانى الذهلى .

نشأته ودراسته : ولد فى ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ ، جيء به حملا من مرو ، وولد فى بغداد ، وتوفى أبوه محمد شابا ، فوليته أمه(١) . نسبه عربى ، وهو شيبانى فى نسبه لأبيه وأمه ، وقد عرفت هذه القبيلة بالهمة والاباء وشدة الشكيمة والصلابة ، كان منها المثنى بن حارثة ، القائد الاسلامى المعروف ، انتقل جده الى خراسان ، وكان واليا على سرخس ، فى العهد الأموى ، وناصر الدعوة العباسية

(١) ترجمة الامام أحمد من تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى ص ١٠ .

عند ظهورها ، وأوذى فى هذا السبيل ، وكان أبوه قائدا كما ذكر الأصمعى .

ترك له أبوه عقارا ببغداد لا يقوم بنفقات الأسرة ، فنشأ على الصبر والقناعة والكفاف .

حفظ **أحمد بن حنبل** القرآن فى صباه ، وتعلم القراءة والكتابة ، ثم اتجه الى الديوان يمرن على التحرير ، ويقول فى نفسه : « كنت وأنا غليم اختلفت الى الكتاب ، ثم اختلفت الى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة » وكانت نشأته فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء : « وأنا أنفق على ولدى وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم ! انظروا كيف ؟ ! وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته »(١) .

وكان عمه يرسل الى بعض الولاة بأحوال بغداد ، ليعلم بها الخليفة ، وقد أرسلها مرة مع ابن أخيه ، **أحمد بن حنبل** ، فتورع عن ذلك ، ورمى بها الماء تأثما من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضرر بالمسلمين ، وقد لفت هذا الورع وهذه النجابة كثيرا من أهل العلم والفراسات ، حتى قال الهيثم بن جميل « ان عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

اتجه **أحمد بن حنبل** الى الحديث ، وروى عنه انه قال : « أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف » وبقى يتلقى الحديث

(١) أحمد بن حنبل : محمد أبو زهرة ص ١٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

ببغداد من سنة ١٧٩ هـ الى سنة ١٨٦ هـ ولزم عالما كبيرا من علماء الحديث والآثار ببغداد أربع سنوات ، وهو هشيم ابن بشير بن أبى حازم الواسطى (١٨٣) وسمع عبد الرحمن ابن مهدى وأبا بكر بن عياش ، وكان فى طلبه للعلم مثال الجد والحرص والنشاط ، فقد ذكر عن نفسه : « كنت ربما أردت البكور فى الحديث ، فتأخذ أمى بثيابى ، حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا » .

رحل أحمد سنة ١٨٦ الى البصرة ، ثم رحل الى الحجاز ، ورحل الى اليمن ، والى الكوفة ، وضاقت نفقته عن الرحلة الى الرى ، قال : « لو كان عندى خمسون درهما لخرجت الى جرير بن عبد الحميد »(١) .

وفى سنة ١٨٧ التقى فى رحلته الى الحجاز مع الشافعى ، وأخذ عنه الفقه وأصوله ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولقى الشافعى بعد ذلك ببغداد ، وقد حرر الشافعى فقهه ، ونضج أحمد فى الحديث وعلم الرواية ، حتى كان الشافعى يقول له : « اذا صح عندكم الحديث فأعلمنى به » .

ويدل على علو همته فى طلب العلم ، قصة يرويها ولده صالح ، قال : « عزم أبى على الخروج الى مكة ، ورافق يحيى بن معين ، فقال أبى : نحج ونمضى الى صنعاء الى عبد الرزاق ، قال فمضينا حتى دخلنا مكة ، فاذا عبد الرزاق فى الطواف ، وكان يحيى يعرفه ، فطفنا ثم جئنا الى عبد الرزاق ، فسلم عليه يحيى ، وقال : هذا أخوك أحمد بن حنبل ، وقال ابراهيم الحربى : « رأيت أحمد كأن الله جمع له علم

(١) ترجمة الامام أحمد ص ١٢ .

ثبته الله على ذلك ! ثم قال لينصرف ، فقال يحيى : ألا نأخذ عليه الموعد ؟ فأبى أحمد وقال : لم أغير النية فى رحلتى اليه أو كما قال ، ثم سافر الى اليمن لأجله ، وسمع عنه الكتب وأكثر عنه » (١) .

واستمر على هذا الجد والطلب حتى بلغ مبلغ الامامة فى الحديث ، قال عبد الله بن أحمد ، سمعت أبا زرعة يقول : « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل له ، وما يدريك ؟ قال : ذاكرته ، فأخذت عليه الأبواب » (٢) وقال ابراهيم الحربى : « رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين » قال أبو عبيدة : « ما رأيت رجلا أعلم بالسنة من أحمد » وكان مع ذلك معجبا بالشافعى ، كثير الاجلال له ، يقول : « ما رأت عيناه مثله » وقد استفاد منه فى الفقه والاستنباط ، واعترف بذكائه الباهر ، وقوة قياسه ، وكان الشافعى معجبا به حتى قال : (خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه وأتقى من ابن حنبل) .

وجلس أحمد للتدريس والفتيا ، وقد بلغ الأربعين ، فوافق السنة ، ووافق فى نشر علم النبوءة سن النبوءة ، وكان اقبال الناس على مجالسه عظيما ، فقد ذكر أن عدد من كانوا يستمعون الى درسه نحو خمسة آلاف ، وانه كان يكتب فيهم نحو خمسمائة » (٣) .

(١) ترجمة الامام أحمد ص ١٣ .
(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٣ .
(٣) ابن حنبل نقلا عن المناقب لابن الجوزى ص ٣١٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

وكانت مجالسه تمتاز بالوقار والسكينة وحسن الانصات واجلال العلم ، وكانت بعيدة عن الدعابة والهـزل وكل ما يذهب رواء العلم وروعة الدين ، وكان للفقراء تقديم على الأمراء والأغنياء ، نقل الذهبى عن المرودى قال : «لم ار الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله ، كان مائلا اليهم ، مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، اذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل ، واذا خرج الى مسجده لم يتصدر ، يقعد حيث انتهى به المجلس »(١) .

سيرته وأخلاقه : كانت حياة أحمد بن حنبل رحمه الله حياة زهد وقناعة وتوكل ، وكان على قدم السلف الصالح ، وأصحاب العزيمة من الطراز الأول ، وكان ذلك عن اختيار لا عن اضطرار ، فلم يقبـل هدايا الخلفاء والسـلاطين وصلاتهم ، وكان يتعافاها « قد خلف له أبوه طرزا (٢) ، وكان يأكل من غلة تلك الطـرز ، ويتعفف بكرائهـا عن الناس »(٣) واذا وجد خصاصة حمل حبله على عاتقه ، وذهب فجمع بقـايا الزرع الذى يترك فى الأرض — وهو فى حكم المباح — فالتقطه ، وقد كان فى بعض الأحيان يؤجر نفسه للحمل فى الطريق — وهو امام المسلمين يومئذ — وكان فى بعض الأحيان يكتب بأجرة ، تقول أم ولده : « كان اذا لم يكن عند مولاى (أحمد بن حنبل) شىء فرح يومه ذلك » وقد ابتلى فى أيام المتوكل بالاقبال والصلات والجوائز ،

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٣٥ .
(٢) الطرز جمع طراز ككتاب وكتب ، والطراز الموضع الذى تنسج فيه الثياب .
(٣) المناقب لابن الجوزى .

كما ابتلى فى أيام المعتصم بالتعذيب والصرم والقسوة ، وكان فى كليهما صابرا عفيفا نزيها ، وكانت الأخرى أشد عليه من الأولى ، وقد ثبت على عفافه وزهده وعزوفه عن أموال السلطان ، وله فى ذلك أخبار غريبة ، منها ما رواه حنبل قال : « بينا نحن جلوس بباب الدار اذا يعقوب — أحد حجاب المتوكل — قد جاء ، فاستأذن على أبى عبد الله ، فدخل ودخل أبى وأنا ومع بعض غلمانه بدرة على بغل ، ومعه كتاب المتوكل ، فقراه على أبى عبد الله : « انه صح عند أمير المؤمنين براءة ساحتك وقد وجه اليك بهذا المـال تستعين به » . فأبى أن يقبله ، فقال : مالى اليه حاجة ، فقال : يا أبا عبد الله ! اقبل من أمير المؤمنين ما أمرك به ، فان هذا خير لك عنده . فاقبل ولا ترده ! فانك ان رددته خفت أن يظن بك سوءا . فحينئذ قبلها . فلما خرج قال : يا أبا على ! قلت لبيك ! قال : ارفع هذه الانجانة وضعها ! (يعنى البدرة تحتها) فوضعتها وخرجنا . فلما كان من الليل اذا أم ولد أبى عبد الله تدق علينا الحائط . فقلت لها مالك ؟ قالت : مولاى يدعو عمه . فأعلمت أبى . وخرجنا فدخلنا على أبى عبد الله . وذلك فى جوف الليل . فقال يا عم ! ما أخذنى النوم هذه الليلة فقال له أبى : ولم ؟ قال : لهذا المـال . وجعل يتوجع لأخذه . وجعل يسكنه ويسهل عليه . فقال : حتى تصبح وترى فيه رأيك . فان هذا ليل . والناس فى منازلهم ، فأمسك وخرجنا فلما كان فى السحر . وجه الى عبدوس بن مالك . والحسن بن البزاز ، فحضرا وحضر جماعة ، منهم هرون الجمال وأحمد ابن منيع ، وابن الدروقى وأنا ، وأبى وصالح ، وعبد الله فجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة فوجه منها الى أبى سعيد الأشج وأبى كريب . والى من ذكر من أهل العلم والسنة ممن يعلمون أنه محتاج ،

www.abulhasanalinadwi.org

ففرقها كلها ، ما بين الخمسين والمائة والمائتين . فما بقى فى الكيس درهم ، ثم تصدق بالكيس على مسكين .

وقد أقام أحمد بن حنبل فى عسكر المتوكل فى ضيافته . وتعفف عن طعامه وأمواله . قال ابنه صالح نزلنا فى (عسكر المتوكل) فى دار التياح . ولم يعلم أبو عبد الله . فسأل بعد ذلك لمن هذه الدار ؟ قالوا : هذه دار التياح . فقال : حولونى ! اكتروا لى دارا ! قالوا : هذه دار أنزلكها أمير المؤمنين . قال : لا أبيت ههنا . قال أبى : فلم نزل حتى اكترينا له دارا . وكانت تأتينا فى كل يوم مائدة فيها ألوان يأمر بها المتوكل . والفاكهة والثلج وغير ذلك . فما نظر اليها أبو عبد الله ولا ذاق منها شيئا . وكانت نفقة المائدة كل يوم مائة وعشرين درهما(١) قال : ومكث خمسة عشر يوما يفطر فى كل ثلاث على ثمن سويق . ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة على رغيف ، وليلة لا يفطر ، وكان اذا جىء بالمائدة توضع بالدهليز لئلا يراها(٢) .

ولما رجع الى الدار نزع الثياب . وكانت قد خلعت عليه ثم جعل يبكى فقال : « سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى اذا كان فى آخر عمرى بليت بهم . ما أحسبنى سلمت من دخولى على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت تقع عينى عليه الى أن أخرج من عنده ! يا صالح ! وجه بهذه الثياب الى بغداد تباع ويتصدق بثمنها . ولا يشتر احد منكم شيئا (٢) » .

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٦١ .
(٢) أيضا ، ص ٦٦ .
(٣) أيضا ص ٦٢ .

وقال حنبل : كان فى حياته ربما استعار الشىء من منزلنا ومنزل ولده . فلما صار الينا من مال السلطان ما صار . امتنع عن ذلك . حتى وصف له فى علته قرعة تشوى ويؤخذ ماؤها . فلما جاءوا بالقرعة . قال بعض من حضر : اجعلوها فى تنور يعنى فى دار صالح فانهم قد خبزوا . فقال بيده : لا !

وكان لا يرى حرمة هذه الاموال . ولكنه يرى أنها أخذت من غير حل وقد تعلقت بها حقوق المسلمين وقلوبهم . فكان يتحاشى أخذها ويتأثم من قبولها . وقد قال مرة لأولاده « لم تأخذونه والثغور معطلة غير مشحونة . والفىء غير مقسوم بين أهله ؟(١) .

وقال مرة : « ماذا ننتظر ؟ انما هو الموت . فاما الى جنة واما الى النار . فطوبى لمن قدم على خير(٢) » وقال له ولده أليس قد أمرت ما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف نفس أن يأخذها ؟ قال قد أخذت مرة بلا اشراف نفس . فالثانية والثالثة ! فما بال نفسك ألم تشرف ؟ قال فقلت : ألم يأخذ ابن عمر وابن عباس ؟ قال ما هذا وذاك ! وقال لو أعلم ان هذا المال يؤخذ من وجهه ولا يكون فيه ظلم ولا حيف لم أبال »(٣) .

وهنا نقف وقفة قصيرة ونتساءل ، لم كان هذا التشديد من أحمد ؟ ولماذا هذه المغالاة ؟ وأقول : لولا هذه

(١) المناقب ص ٣٨٤ .
(٢) ترجمة الامام أحمد ص ٦٢ .
(٣) أيضا ص ٦٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

الصرامة ، ولولا هـذا التدقيق فى الزهد والعزوف عن أموال السلطان ، ولولا هذه المحافظة الشديدة على منهج الحياة الذى التزمه أحمـد بن حنبل ، لما استطاع ان يستعصى على هـذه الدولة القويـة ، وأن يفلت من حبالها ، ولمـا استطاع أن يمثل هـذا الدور الرائع فى تاريخ الاصلاح والتجديد والدفاع عن الدين ، وأن يؤثر فى عقول الناس وقلوبهم هـذا التأثير العظيم وأن يقف طودا شامخا ، وجبـلا راسيا ، فى هـذه التيارات التى تجرف الرجال وتحرك الجبال .

ثم انه بهـذا الزهد والتوكل على الله استفاد قـوة روحية ، وصلة عميقة بالله ، وانابة اليه ، استحق بها النصر وتغلب على نزوات النفس وشهواتها .

وقـد رأينـا الزهـد والتجـديد مترافقين فى تاريخ الاسلام ، فلا نعرف أحـدا ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحـا جـديدة فى المجتمع الاسـلامى أو افتتح عهـدا جديدا فى تاريخ الاسـلام ، وخلف تراثا خالـدا فى العلم والفكر والدين ، وظل قرونـا يؤثر فى الافكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب الا وله نزعة فى الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطرة على المـادة ورجالها ، ولعل السر فى ذلك أن الزهد يكسب الانسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المـادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ولذلك ترى كثيرا من العبقريين والنوابغ فى الأمم ، كانوا زهادا فى الحياة متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والاغنياء فى زمانهم ، ولان الزهد يثير فى النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح . والدعة والرخاوة تبلـد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب .

وهنـاك تعليلات أخرى يوافق عليهـا علم النفس وعلم الاخلاق ، ولا أطيل بذكرها ، وأقتصر على هـذه الملاحظة التاريخية ، وألح على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهدا وترفعا عن المطامع وسفساف الأمور، ويأبى الاندفاع الى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، انما هو خلافة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وقد قيل له « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » وأمـر بأن يقول لازواجه « ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمـر العظيم ، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وأرجع الى حديث **أحمـد بن حنبل** فأقول : قد كان — مع هذه الزهادة وخصاصة العيش — جوادا سمح النفس ، يقول : « يؤكل الطعـام بثلاث ، مع الاخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبنـاء الدنيا بالمروءة » ويقول : « لو أن الدنيا تقل حتى تكون فى مقدار لقمة ، ثم اخـذها امرؤ مسلم،فوضعها فى فم أخيه المسلم،ما كان مسرفا»(١).

وكان كثير العفو عمن يسىء اليـه اغلظ له رجل الكلام وتركه مغاضبا ثم عـاد اليه نادما ، وقال لـه معتذرا : يا أبا عبد اللـه ! ان الذى كان منى على غير تعمد ، فانا أحب أن تجعلنى فى حل ، فقال أحمد : « ما زالت قدماى من

(١) ابن حنبل ص ٨٧ — ٨٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

مكانها حتى جعلتك فى حل (١) وقد عفا عن كل من أساء اليه ، أو تسبب فى عقوبته ومحنته ، وجعلهم فى حل ، وقال : ما على رجل أن يعذب الله بسببه أحدا(٢) ، وقال حنبل بن اسحق ، سمعته يقول : كل من ذكرنى فى حل الا مبتدع ، وقد جعلت أبا اسحق — يعنى المعتصم — فى حل ، ورأيت الله تعالى يقول : (وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون أن يغفر الله لكم)(٣) ؟ .

وكان مع هذه الفضائل التى أوسعه الله بها متواضعا لله، متطامنا للناس ، ولا يفتخر فى شىء . قال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبته خمسين سنة ما افتخر علينا بشىء مما كان فيه من الفلاح والخير(٤) ، وقال غارم أبو النعمان : وضع أحمد عندى نفقته ، فكان يجىء فيأخذ منها حاجته ، فقلت له يوما : يا أبا عبد الله ! بلغنى أنك من العرب ، فقال : ياأبا نعمان ! نحن قوم مساكين ، فلم يزل يدافعنى حتى خرج ولم يقل شيئا(٥) .

وقد وضع الله له القبول فى قلوب العباد ، وطار ذكره فى الآفاق ، ودعا له المسلمون وتقربوا بحبه الى الله ، وهو يخاف على نفسه من الاستدراج ، قال المروزى : قلت لأبى عبد الله : ما أكثر الداعى لك ! قال : أخاف أن يكون هذا استدراجا ، بأى شىء هذا ؟ وقلت لابى عبد الله : ان رجلا قدم طرسوس فقال لى : انا كنا فى بلاد الروم فى الغزو ، اذ هدأ

(١) أيضا ص ٨٥ .
(٢) ترجمة الامام أحمد ص ٥٤ .
(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٥٥ .
(٤) حلية الاولياء ج ٩ ص ١٨١ .
(٥) ترجمة الامام أحمد ص ٢٢ .

الليل ، رفعوا أصواتهم بالدعاء ادعوا لابى عبد الله ! وكنا نمد المنجنيق ونرمى عنه ، ولقد رمى عنه بحجر والعلج على الحصن متقوس بدرقة ، فذهب برأسه وبالدرقة ، فتغير وجهه وقال : ليته لا يكون استدراجا ! فقلت : كلا(١) .

وقد كان كثير من غير المسلمين يجلونه ويخضعون له ، ويعتقدون فيه الصلاح ، ويتبركون بزيارته ، قال المروزى : رأيت بعض النصارى الاطباء قد خرج من عند أبى عبد الله ومعه راهب فسمعت الطبيب يقول : انه سألنى أن يجىء معى حتى ينظر الى أبى عبد الله . وقال أيضا : أدخلت نصرانيا على أبى عبد الله يعالجه ، فقال : يا أبا عبد الله ! انى أشتهى أن أراك منذ سنين ، ما بقاؤك صلاح الاسلام وحده ، بل للخلق جميعا ، وليس من أصحابنا أحد الا رضى بك قال المروزى : فقلت لأبى عبد الله ، انى لارجو أن يدعى لك فى جميع الامصار ، فقال يا أبا بكر ! اذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس (٢) ؟

وكان مع هذا التواضع مهيبا وقورا ، وكان الناس مدفوعين الى اجلاله وتهيبه شأن من « تواضع لله رفعه الله » يقول أحد معاصريه : دخلت على اسحق بن ابراهيم (نائب بغداد) وفلان وفلان من السلاطين ، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت اليه أكلمه فى شىء فوقعت على الرعدة حين رأيته من هيبته(٣) .

(١) ابن حنبل ص ٢١ .
(٢) ابن حنبل ص ٩١ .
(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٢٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

وفاتــه :

قال المروزى : مرض أبو عبد الله ليــلة الاربعاء لليلتين خلتا من ربيع الاول ، ومرض تسعة أيام ، وكان ربما أذن للناس فيدخــلون عليه أفواجا ، يســلمون عليه ويرد عليهم بيده ، وتسامع الناس وكثروا ، وســمع السلطان بكثرة الناس ، فوكل السلطان ببابه وبباب الزقاق الرابطة وأصحاب الاخبــار ، ثم اغلق باب الزقاق فكان الناس فى الشــوارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل اذا أراد أن يدخل اليه ربما دخل من بعض الدور وطرز الحاكة ، وربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب ، وجاءه حاجب بن طاهر فقال: ان الامير يقرئك السلام ، وهو يشتهى أن يراك ، فقال : هذا مما اكره ، وأمير المؤمنين أعفانى مما أكره ، وأصحاب الخبر يكتبون بخبره الى العسكر ، والبرد تختلف كل يوم . وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه ، وجعلوا يبكون عليه ، وجاء قوم من القضاة وغيرهم ، فلم يؤذن لهم ، ودخل عليه شيخ فقال : أذكر وقوفك بين يدى الله ، فشهق أبو عبد الله ، وســالت الدموع على خديه ، فلما كان قبل وفاته بيوم أو بيومين قال : ادعوا لى الصبيان — بلسان ثقيل — فجعلوا ينضمون اليه ، وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع ، فقال له رجل : لا تغتم لهم يا أبا عبد الله ! فأشار بيده فظننا معناه: أنى لم أرد هذا المعنى. وكان يصلى قاعدا ، ويصلى وهو مضطجع ، لا يكاد يفتر ، ويرفع يديه فى (ايماء الركوع) وادخلت الطست تحته ، فرأيت بوله دما عبيطا ليس فيه بول ، فقلت للطبيب ، فقال : هذا رجل قد فتت الحزن والغم جوفه ، واشتدت علته يوم الخميس ، ووضأته فقال خلل الاصابع ، فلما كانت ليلة الجمعة ثقل ،

وقبض صدر النهار ، فصاح الناس وعلت الاصوات بالبكاء ، حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتلأت السكك والشوارع(١) .

قال المروزى : أخرجت الجنازة بعد منصرف الناس من الجمعة ، قال عبد الوهاب الوثاق : ما بلغنا أن جمعا فى الجاهلية والاسلام مثله ، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح ، فاذا هو نحو من ألف ألف ، وحزرنا على القبور نحوا من ستين ألف امرأة ، وفتح الناس أبواب المنازل فى الشوارع والدروب ينادون من أراد الوضوء ، وقال ابن اسحق البغوى : حزر من حضر جنازة أحمد من الرجال ثمان مائة ألف ، ومن النساء ستين ألف امرأة(٢) ، هذا سوى من كان فى السفن فى المــاء(٣) .

وبهذا الاحتشاد العظيم فى جنازته تحقق مانبأ به بقوله : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز(٤) .

وكانت وفاته سنة ٢٤١ هـ .

المحنـــة :

أصدر المأمون سنة ٢١٨ — كما تقدم — رسالة الى والى بغداد ، اسحق بن ابراهيم أمر فيها بجمع القضاة وامتحانهم فى عقيدة خلق القرآن ، وعزل من لا يقول بذلك منهم ،

---

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) ترجمة الامام أحمد ص ٨٠ .
(٣) أيضا ص ٨١ .
(٤) أيضا ص ٨١ .

www.abulhasanalinadwi.org

واسقاط شهادة من لا يراها من الشهود ، وأرسلت منها صور الى الاقطار الاسلامية ، ثم كتب اليه ان يرسل اليه سبعة من كبار المحدثين الذين عارضـــوا هذه العقيدة ، ففعل . وأجاب هؤلاء ، فأعادهم الى بغداد ، وأمر الوالى ان يجمع الفقهاء والمشايخ من اهل الحديث فى داره ، ففعل ، وأجاب هؤلاء ، فخلى سبيلهم ، ثم أصدر كتابا ثالثا غلظ فيه القول ، وضيق الامر ، وأمر بالتوسع فى امتحان الناس، وامتثل الوالى امره ، فاحضر مشـــاهير العلماء ورؤوس الناس وامتحنهم ، وكانت اجابات القوم مختلفة ومضطربة ، وحرر الوالى محضرا بجميع أقوال الممتحنين ، وأرسل الى المأمون وثار المأمون بقراءته . واشتد غضبه . وعرض بهم واستخف . وأمر بضرب رقبة بشر بن الوليد . وابراهيم ابن المهدى ان لم يرجعا عن قولهما . وأمر بالعودة الى امتحان هؤلاء . فان اصروا فاحملهم أجمعين موثقين الى عسكر أمير المؤمنين .. فان لم يرجعوا ويتولوا ، حملهم جميعا على السيف ان شاء الله ولا قوة الا بالله » .

وامتثل الوالى أمر الخليفة ، وجمعهم ثانية ، وقرأ عليهم كتاب المأمون ، فأقروا جميعا بأن القرآن مخلوق الا اربعة : أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح ، وأمر بهم فشدوا فى الحديد ، واعترف سجادة بخلق القرآن، فأطلق سراحه ،، وأجاب القواريرى بعد يوم آخر ، فأطلق سراحه ، وانحصر الامر فى اثنين : أحمد بن حنبل ، ومحمد ابن نوح ، فشدهما فى الحديد ووجهما الى المأمون ، ثم أرسل البقية من الممتحنين بأمر المأمون ، وبلغتهم وفـاة المأمون وهو بالـرقة ، فخلى والى بغداد سبيل أكثرهم ، ومات محمد بن نوح وهو عائد الى بغداد ، وهكذا تركزت

رياسة المعارضة — كما يقول الدكتور أحمد أمين — فى أحمد ابن حنبل ، فكان زعيمها وعلمها ومتجه الأنظار فيها .

ووصل أحمد بن حنبل الى بغداد مقيدا ، وحبس فى دار عمارة ببغداد ، ثم حول الى سجن العامة ، ومكث فى السجن نحوا من ثلاثين شهرا ، قال ابنه حنبل : كنا نأتيه ، وقرأ على كتاب الأرجاء وغيره فى الحبس ، ورأيته يصلى بأهـــل الحبس وعليه القيد ، فكان يخرج رجله من حلقة القيد وقت الصلاة والنوم .

أحمد بن حنبل يحكى قصته :

ويحكى أحمد بن حنبل قصته وما جرى له أيام المعتصم خليفة المأمون . وهى قصة البطولة الخالدة والايمان الرائع، فلنستمع اليه !

« فلما كان فى الليلة الرابعة وجه — يعنى المعتصم — ربيعا الذى كان يقال له الكبير أبو اسحق ، فأمره بحملى اليه ، فأدخلت على اسحق ، فقال : يا أحمد ، أنها والله نفسك ، أنه لا يقتلك بالسيف ، أنه قد آلى أن لم تجبه أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وان يقتلك فى موضع لا ترى فيه شمس ولا قمر .. فلما صرنا الى الموضع المعروف بباب البســـتان ، اخرجت ، وجىء بدابة فحملت عليها وعلى الاقياد ، وما معى أحد يمسكنى ، فكدت غير مرة ان أخر على وجهى لثقل القيـــود ، فجىء بى الى دار المعتصم ، فأدخلت حجرة وادخلت الى بيت ، وأقفل الباب على ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فاردت أن اتمسح للصلاة ، فمددت يدى فاذا أنا باناء فيه ماء وطست موضوع ،

www.abulhasanalinadwi.org

فتوضأت وصليت ، فلما كان من الغد أخرجت تكتى من سراويلى وشددت بها الأقياد احملها ، وعطفت سراويلى ، فجاء رسول المعتصم فقال : أجب! فأخذ بيدى وادخلنى عليه؟ والتكة فى يدى أحمل بها الاقياد ، واذا هو جالس ، وابن أبى دؤاد حاضر ، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه فقال لى : — يعنى المعتصم — : ادنه ! فلم يزل يدنينى حتى قربت منه ، ثم قال لى : اجلس ؟ فجلست ، وقد أثقلنى الاقياد ، فمكثت قليلا ، ثم قلت : أتأذن لى بالكلام ؟ فقال : تكلم . فقلت : الى ما دعا الله ورسوله ؟ فسكت هنيهة ، ثم قال : الى شهادة أن لا اله الا الله ، فقلت : فأنا اشهد أن لا اله الا الله ، ثمقلت : ان جدك ابن عباس يقول : لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن الايمان ، فقال أتدرون ما الايمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وان تعطوا الخمس من المغنم ، قال أحمد : قال : — يعنى المعتصم — لولا انى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضت لك .

ويذكر أحمد بن حنبل ما جرى بينه وبين علماء البلاط من الكلام والمناظرة ، ثم يقول : وجعل ابن أبى دؤاد يقول : يا أمير المؤمنين ! لئن أجابك لهو احب الى من مائة الف دينار ومائة الف دينار ، فيعد من ذلك ما شاء الله ان يعد ، فقال المعتصم : والله لئن أجابنى لأطلقن عنه بيدى ولأركبن اليه بجندى ، ولأطأن عقبه .

ثم قال : يا أحمد ! والله انى عليك لشفيق ، وانى لاشفق عليك كشفقتى على هرون ابنى ، ما تقول ؟ فاقول : أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله .

فلما طال المجلس ضجر وقال : قوموا ! وحبسنى — يعنى عنده — وعبد الرحمن بن اسحق يكلمنى ، فقال المعتصم : ويحك اجبنى ! فقال : ما اعرفك ، الم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن بن اسحق : يا أمير المؤمنين ! أعرفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والجهاد والحج معك، قال : فيقول : والله انه لعالم ، وانه لفقيه ، وما يسوؤنى ان يكون معى يرد عنى أهل الملل . ثم قال لى : ما كنت تعرف صالحا الرشيدى ؟ قلت قد سمعت باسمه ، قال : كان مؤدبى ، وكان فى ذلك الموضع جالسا — وأشار الى ناحية من الدار — فسألته عن القرآن فخالفنى ، فأمرت به ، فوطىء وسحب !

ثم قال : يا أحمد ! أجبنى الى شىء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدى ، قلت : أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله ! فطال المجلس وقام ورددت الى الموضع الذى كنت فيه .

فلما كان بعد المغرب ، وجه الى رجلين من أصحاب ابن أبى دؤاد ، يبيتان عندى ويناظران ويقيمان معى ، حتى اذا كان وقت الافطار جىء بالطعام ، ويجتهدان بى أن أفطر فلا أفعل ، ووجه الى المعتصم ابن أبى دؤاد فى بعض الليل ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين ما تقول ؟ فأرد عليه نحوا مما كنت أرد ، فقال ابن أبى دؤاد ، والله لقد كتب اسمك فى السبعة ، يحيى بن معين وغيره ، فمحوته ، ولقد ساءنى أخذهم اياك ، ثم يقول ان أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس، ويقول : ان أجابنى جئت اليه حتى أطلق عنه بيدى ، وأنصرف » .

www.abulhasanalinadwi.org

« قال فلما كان فى الليلة الثالثة قلت : خليق أن يحدث غدا من أمرى شىء ، فقلت لبعض من كان معى ، الموكل بى : ارتد لى خيطا ! فجاءنى بخيط فشددت به الاقياد ورددت التكة الى سراويلى مخافة أن يحدث من أمرى شىء فأتعرى ، فلما كان من الغد فى اليوم الثالث وجه الى ، فأدخلت فاذا الدار غاصة ، فجعلت أدخل من موضع الى موضع ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط وغير ذلك : ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير عدد من هؤلاء ، فلما انتهيت اليه ، قال : اقعد ! ثم قال : ناظروه ! كلموه ! فجعلوا يناظرونى ، يتكلم هذا فأرد عليه ، ويتكلم هذا فأرد عليه ، وجعل صوتى يعلو أصواتهم ، فجعل بعض من أعلى رأسه قائم يومى الى بيده ، فلما طال المجلس نحانى ثم خلابهم ، ثم نحانى وردنى الى عنده ، فقال : ويحك يا أحمد ! أجبنى حتى أطلق عنك بيدى ! فرددت عليه نحوا مما كنت أرد ، فقال لى : عليك ! — وذكر اللعن — وقال خذوه واسحبوه واخلعوه ! قال : فسحبت ثم خلعت .

قال : وقد كان صار الى شعر من شعر النبى صلى الله عليه وسلم فى كم قميصى ، فوجه الى اسحق بن ابراهيم : ما هذا المصرور فى كم قميصك ؟ قلت : شعر من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وسعى بعض القوم الى القميص ليخرقه على فقال لهم — يعنى المعتصم — لا تخرقوه! فنزع القميص عنى ، قال فظننت أنه انما درأ عن القميص الخرق بسبب الشعر الذى كان فيه ، قال : وجلس المعتصم على كرسى ، ثم قال : العقابين والسياط ! فجىء بالعقابين ، فمدت يداى ، فقال بعض من حضر خلفى : خذ نأى الخشبتين بيديك ، وشد عليهما ! فلم أفهم ما قال ، فتخلعت يداى .

ولما جىء بالسياط نظر اليها المعتصم وقال : ائتونى بغيرها ! ثم قال للجلاديين ، تقدموا ! فجعل يتقدم الى الرجل منهم فيضربنى سوطين ، فيقول له شد ! قطع الله يدك ، فلما ضربت تسعة عشر سوطا قام الى — يعنى المعتصم — وقال : يا أحمد ! علام تقتل نفسك ؟ انى والله عليك لشفيق ، قال : فجعل عجيف ينخسنى بقائمة سيفه ، وقال أتريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟ وجعل بعضهم يقول : ويلك ! الخليفة على رأسك قائم ! وقال بعضهم يا أمير المؤمنين ! دمه فى عنقى ، اقتله ! وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين ! أنت صائم ، وأنت فى الشمس قائم ، فقال لى : ويحك يا أحمد ! ما تقول ؟ فأقول اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به ، فرجع وجلس ، وقال للجلاد : تقدم وارجع ! قطع الله يديك! ثم قام الثانية فجعل يقول:ويحك ياأحمد!أجبنى!فجعلوا يقبلون على ويقولون : يا أحمد ! أمامك على رأسك قائم ، وجعل عبد الرحمن يقول : من صنع من أصحابك فى هذا الامر ما تصنع ؟ وجعل المعتصم يقول : ويحك اجبنى الى شىء لك فيه أدنى فرج حتى اطلق عنك بيدى ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؟ اعطونى شيئا من كتاب الله ، فيرجع ، وقال للجلادين : تقدموا ؟ فجعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين وينتحى ، وهو فى خلال ذلك يقول : شد ؟ قطع الله يدك ، قال أبى : فذهب عقلى ، فأفقت بعد ذلك فاذا الأقياد قد أطلقت عنى ، فقال لى رجل ممن حضر : انا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك باريه ودسناك ؟ قال أبى : فما شعرت بذلك ، وأتونى بسويق ، فقالوا لى : اشرب وتقيأ ؟ فقلت : لا أفطر ، ثم جىء بى الى دار اسحق بن ابراهيم ، فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلى ،

www.abulhasanalinadwi.org

فلما انفتل من الصلاة قال لى : صليت والدم يسيل فى ثوبك ؟ فقلت : قد صلى عمر وجرحه يثعب دما(١) .

ويقول ابنه صالح : « ثم خلى عنه فصار الى منزله ، وكان مكثه فى السجن منذ أخذ وحمل الى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهرا . ولقد أخبرنى أحد الرجلين اللذين كانا معه قال : يا ابن أخى ؟ رحمة الله على أبى عبد الله ؟ والله ما رأيت أحدا يشبهه ، ولقد جعلت أقول فى وقت ما يوجه الينا بالطعام : يا أبا عبد الله ؟ أنت صائم ، وأنت فى موضع تقية ، ولقد عطش فقال لصاحب الشراب : ناولنى ؟ فناوله قدحا فيه ماء وثلج ، فأخذه ونظر اليه هنيهة ، ثم رده ولم يشرب ، فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش وهو فيما هو فيه من الهول .

قال صالح : كنت التمس وأحتال أن أوصل اليه طعاما أو رغيفا فى تلك الأيام فلم أقدر . وأخبرنى رجل حضره ، أنه تفقده فى هذه الايام الثلاثة وهم يناظرونه ، فما لحن فى كلمة ، قال وما ظننت أن أحدا يكون فى مثل شجاعته وشدة قلبه .

وهكذا تنتهى هذه القصة التى لا تزال حجة بطولة الامام أحمد ، وقوة العقيدة وعجائب صنع الايمان ، وقد كان من ثبات ابن حنبل وشجاعته واخلاصه ان انطفأت عقيدة خلق القرآن ، وانطفأت معها حركة الاعتزال حتى بقيت مدفونة فى كتب الملل والنحل وعلم الكلام ، وانتصر أحمد بن حنبل بايمانه وشجاعته ، وكان انتصاره دليلا على انتصار

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٤٨ — ٤٩ .

الاخلاص والعزم على القوة والدولة والمعارضات الشديدة والعقوبات الموجعة ، وانهزمت حكومة هى من أقوى الحكومات واوسعها فى عصرها ، وانهزم معها كل من التف حول رايتها من أهل العلم والجدل والذكاء والمناصب والرياسات . وكان المعتزلة ولو انتصروا فى المحنة فاستطاعوا — بسيطرتهم العلمية والسياسية على البلاط — أن يعاقبوا منافسيهم ورئيس الحزب الذى يعارضهم بما شاءوا ، وينفذوا فيه ارادتهم ولكنهم خسروا دولتهم ، وفقدوا سلطانهم وقطعوا الصلة بينهم وبين الشعب ، فقد كرههم من ذلك اليوم كراهة شديدة ، وانصرفت القلوب عنهم ، ولم يزل نجمهم فى أفول حتى غرب من غير رجعة ، قال الدكتور أحمد أمين « ولم يسترد المعتزلة سلطتهم يوما ما بعد المحنة (١) » .

وخرج أحمد بن حنبل من هذه المحنة خروج السيف من الجلاء ، والبدر من الظلماء ، وكان كما قال بعض معاصريه « أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر » ولم يزل بعد ذلك اليوم فى صعود واعتلاء حتى تواضعت القلوب على حبه ، وأصبح حبه شعار أهل السنة وأهل الصلاح ، حتى نقل عن أحد معاصريه قتيبة أنه قال : « اذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم انه صاحب سنة (٢) » وقال أحمد ابن ابراهيم الدورقى « من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهموه على الاسلام » (٣) وقال شاعر (٤) :

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ، ص ٢٠١ .
(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٦ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب ج ٤ ص ٤٣١ .
(٤) ضحى الاسلام ج ٣ ، ١٩٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة وبحب أحمد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمد متنقصا فاعلم بأن ستوره ستهتك

وقد اعترف معاصروه بأن غناءه للاسلام ، وفى الدفاع عن القرآن كان عظيما ، وانه سد ثلمة عظيمة كادت تحدث فى الاسلام ، وشبهوا يوم المحنة بيوم الردة ، وقرنوا ذكر أحمد ابن حنبل بذكر ابى بكر الصديق ، وكفى به عظمة قال على بن المدينى ، أحد ائمة الحديث فى عصره ، ومن شيوخ البخارى: « ان الله أعز هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة »(١) .

وليس سر عبقرية أحمد بن حنبل فى دفاعه عن عقيدة من عقائد الاسلام ، وانتصاره لها — وفضله فى ذلك لا ينكر — ولكن مأثرته الكبرى التى اكسبته منصب التجديد ، هو انه وقف سدا منيعا فى اتجاه هذه الأمة الى التفكير الفلسفى المتهور ، الذى لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى ، وعن النبوة المحمدية ، وخضعت هذه الأمة للفلسفات ، وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ، وانتصرت الحكومة على الشعب ، والسياسة على الدين انتصارا مؤيدا ، وسلبت حرية الرأى والعقيدة ، ولا شك انها رزيئة جليلة ، وفتنة عظيمة فى الاسلام ، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهى فى شبابها وأوجها ، وحفظ هذا الدين من أن يعبث به العابثون ، وتتحكم فيه السلطة والأهواء ، وحفظ هذه الأمة من أن تكون فى حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم يفرضون عليها العقائد فرض الجبايات ، ويسوقونها الى أهوائهم سوق

(١) ترجمة الامام أحمد ص ١٧ .

الغنم والبقرات ، ورد الى العقيدة الاسلامية كرامتها وأصالتها ، والى الأمة حريتها وشخصيتها ، فاستحق بذلك تقدير الانسانية وثناء المسلمين ، واعتراف الاجيال القادمة واجلال التاريخ واكباره ، وكان من المجددين الكبار فى الاسلام .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس

الموضـــوع	صفحة
نشأة الاعتزال والمعتزلة	٥
المأمون وعقيدة خلق القرآن	١١
أحمد بن حنبل	١٦
نشأته ودراســته	١٦
سيرته وأخلاقه	٢٠
وفاتــه	٢٨
المحنــة	٢٩
أحمد بن حنبل يحكى قصته	٣١

مطابع الاهــرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٣/٣٧٦١

www.abulhasanalinadwi.org